الشخصية الدينية
في روايات نجيب محفوظ
رواية (زقاق المدق)، أنموذجاً

د: سالم عمر طاهر الكوردي

✍ **الشخصية الدينية:** "هي تلك الشخصية التي تلتزم في سلوكها، عبر مجرى أحداث الرواية، بفكر ديني، أياً كان المذهب الديني الذي تنتمي إليه، أو يوحي مظهرها بانتمائها إلى الدين" [١٣٢].

وتعرّف أيضاً: "بأنها تلك التي تنطلق في سلوكها ومعاملاتها ومواقفها المختلفة، من مجموعة مبادئ دينية، تفهمها فهماً واعياً، وتدعو إليها، وتدافع عنها، وتكتسب لذلك قدراً من الاحترام والتوقير من معظم أفراد المجتمع"[١٣٣].

([١٣٢]) نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ، د. محمد علي سلامة، ط١ ص٥١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٧.

تتضمن الرواية شخصيات متنوعة، حسب الواقع، أو المجتمع، الذي تعبّر عنه الرواية، لتفاوت أو تعارض فكري وسلوكي بين الأفراد. والذين درسوا موضوع الشخصية في الروايات، ركّزوا على الشخصيات الرئيسة، واهتموا أيضاً بدور الشخصيات الأخرى، كالشخصية الدينية، مع العلم أنها لا تقلّ أهمية عن الشخصية الرئيسة في الروايات.

لهذا سنتطرق في هذا البحث إلى دور الشخصية الدينية، وأثرها الإيجابيّ أو السلبيِ، في المجتمع، من بعض النواحي الرئيسة.

أولاً: المستوى الثقافي للشخصية الدينية:

الشخصية الدينية المثقّفة: هي الشخصية التي حصلت على قدر مناسب من التعليم، كأن تحصل على شهادة جامعية، أو يشهد لها بالتميز الثقافي في المجتمع المحيط به، كقريتها مثلاً، فربّما يكون شخصية مدرّس متميز، أو طبيب، أو مهندس، أو رجل عامة، ويكون ذا توجّه إسلامي.

يتميز المثقّف بعدّة صفات، منها: "الشجاعة – الوضوح – الإقدام – الإرادة القوية – ممّا يجعله يواجه المشكلات بإرادة قوية، ويتحمّل المعاناة، ويصبر عليها"[١٣٤].

الشخصيات الدينية في عالم الرواية عند نجيب محفوظ، تحمل قدراً من الثقافة، يؤهّلها بأنّ تلعب دوراً مؤثّراً في المجتمع، فأغلبها ذا مستوى ثقافي تستطيع أن تلعب هذا الدور. ومردّ دورها الفعّال يرجع إلى المستوى الثقافي الذي تحمله هذه الشخصيات عند الروائي.

في (زقاق المدقّ) نجد السيد رضوان الحسيني، إنساناً مثقّفاً، بالرغم من إخفاقه في إتمام دراسته الأزهرية، حيث إنّ العلماء كانوا يسعون إليه في بيته، يتدارسون ويتعبدون[١٣٥].

من خلال مناقشة السيد رضوان الحسيني مع السيد سليم علوان، يتبيّن المستوى الثقافي للسيد رضوان، إذ كيف يوجّه السيد سليم علوان إلى الوجهة الصحيحة، وتفسير

---

١٣٣ - الشخصية الدينية في خطاب نجيب محفوظ الروائي، عبد الرحمن محمد الرشيد ،ط١ ص٧٣ ،دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩.

(١٣٤) ينظر: إسلامية الشخصية في روايات نجيب الكيلاني، محمد بن يحيى أبو ملحة، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ص٢٠١، مجلة نصف مئوية تصدر عن قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.

(١٣٥) ينظر: الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ، د. محمد حسن عبدالله، ط٣ ص٨٥، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠٠١م.

الأمور على وجهها الصحيح. فبعد حوار طويل بينهما حول مرضه، بيّن السيد رضوان – بثقافته - أن المرض امتحان إلهي، بعدما قال سليم علوان: "المرض شرّ قبيح. فابتسم السيد رضوان، وقال: ربّما كان كذلك في ذاته، ولكنّه امتحان إلهي، وهو من هذه الناحية خير".

ثم وضّح له بعد ذلك قول السيد سليم، عندما قال: "أرأيت إلى المعلّم كرشه، كيف يحتفظ بصحة البغال؟

– إنك بمرضك، خير منه بصحته وعاقبته".

وفي ختام حواره، قال له: "لا تيأس، ولا تحزن، وسلّم إلى الله ربّك الغفور الرحيم. . ."[١٣٦].

وهو عالم بالأمور الدينية، حيث يطرح قضايا خطيرة في مشهد الحجّ، بعد عواطفه الحانية تجاه الحجّ، فهو يرى أن الله عزيز ذو انتقام، يرسم لنا طريق إقرار الحقوق والواجبات، وليس معنى ذلك أن الله سينتقم من العصاة، لأنّه غنيّ عن ذلك. وهذه النزعة الصوفية المتفائلة، تمتدّ لتصبح إنسانية غامرة، في موقفه من الدنيا، والبشر، على مستوياتهم، فيقول: "إني أحب الحياة، بل أحب نفسي، لا كذات تتعلّق بي، ولكن كفلّذة من قلب البشرية. . . ضياء؟"!![١٣٧].

رأيه في العدل الإلهي مقبول، بسبب ارتباطه بالسببين الآخرين: سماحته الإنسانية، وارتباطه بالمعنى البشري، وحبه لهم على أصنافهم، وإحساسه بالتقصير في معاونتهم على الطريق الصحيح[١٣٨].

في الرواية شخصية دينية أخرى، وهو الشيخ درويش، وهو ذو ثقافة واطّلاع، حيث إنّه كان في "شبابه مدرّساً في إحدى مدارس الأوقاف، بل كان مدرس لغة إنكليزية! وقد عرف بالاجتهاد والنشاط"[١٣٩] في بداية عهده، ولكن بعد ذلك أصبح كاتباً في (وزارة الأوقاف)، عندما انضمّت مدارس الأوقاف إلى (وزارة المعارف). وأصبح بعد ذلك رجلاً كثير الشكوى، لا يكاد يمضي يوماً من حياته دون خصام. ولكن بعد أن ختم حياته الوظيفية، أصبح عالة على النّاس، فكانوا يطعمونه ويكسونه و. . . ولم نجد في الرواية أنه قد أدّى دوراً بحيث يستفاد من شهادته وثقافته، بل كان ينطق بكلمات وعبارات غامضة، يتعالى بها على النّاس فقط، ويبيّن أنه فوق مستواهم.

([١٣٦]) رواية زقاق المدقّ، نجيب محفوظ، ط١ ص١٥١، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٧٢.

([١٣٧]) المصدر السابق، ص ١٢٤.

([١٣٨]) ينظر: الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ، ص٩٠-٩١.

([١٣٩]) المصدر السابق، ص ١٤.

فالشخصيات الدينية - إذن - في رواية (زقاق المدقّ) تلعب دوراً مهمّاً وإيجابيّاً، وتعتبر مرجع حلول المشاكل، والمأوى لكل من ضاقت عليه الأرض، كما في الزقاق. كما يظ هر لنا أيضاً أنّه قدّم شخصيتين دينيتين في هذه الرواية: إحداها مؤثّرة، والأخرى هامشية. فالشخصيات الدينية المثقفة هنا، أغلبها تلعب دوراً إيجابياً.

ثانياً: الدور الاجتماعي للشخصية الدينية:

تعدّ الشخصية الدينية في الروايات رمزاً للنجاة، أو تظهر معالم طرق النجاة على لسانها، ويلجأ إليها النّاس ليجدوا عندها حلّاً ينقذهم من الحيرة والتخبّط. وهذا ما سنتطرق إليه، لبيان دور هذه الشخصية، في هذه الرواية، من الناحية الاجتماعية.

في هذه الرواية، نجد السيد رضوان الحسيني ذا مكانة اجتماعية طيّبة بين النّاس، وهو م حلّ تقدير واحترام وثقة عند الجميع، والنّاس يرجعون إليه في الشدائد. فالسيدة (أمّ حسين)، زوجة المعلم كرشه، تلجأ إليه، رغبة في إصلاح زوجها، فيمدّ يدّ العون لها في الأوقات الصعبة. فحين شكت إليه زوجها، وأفعاله السيئة، انفعلت المرأة انفعالاً شديداً، ولكنه استطاع بأسلوبه، وحنكته، أن يهدّئ من روعها:

"فقالت المرأة، وهي تتمالك انفعالها:

– الله يكرمك، الله يسعدك، الله يشرّف قدرك، أنت يا سيّدي الملاذ والمأوى، وسأدع هذا الأمر بين يديك وأنتظر، وربّنا بيني وبين هذا الرجل الفاجر"[١٤٠].

فيستدعي المعلّم إلى مجلسه، ليحلّ المشكلة بينه وبين زوجته. ونلاحظ في حواره مع المعلّم قمّة الذكاء، إذ لم يذكر في حديثه اسم زوجته، لكي لا يسبّب لها المشاكل، بل كان حواراً يطمع فيه الشيخ لهدايته، فيقول له، بعد حوار طويل معه عن علاقته بشاب سيئ السمعة:

"- هذا شاب سيئ السمعة، ولقد أخطأتَ في محاولة خداعي، وكان الأخلق بك أن تقدّر نصحي، وتواجهني صادقاً صريحاً". ثم قال له:

"- إني أدعوك لما فيه صلاحك، وصلاح بنيك، ولست يائساً من جذبك للخير. اهجر هذا الشاب. . ."[١٤١].

(١٤٠) رواية زقاق المدق، ص٧٨.

(١٤١) رواية زقاق المدق، نجيب محفوظ، ص٨٢-٨٣. وينظر أيضا: الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ، ص٨٦-٨٧.

ويعتبر السيد رضوان ملاذاً لسكان أهل الزقاق، من المحتاجين وأصحاب الكروب[١٤٢]، فهو يقدّم المعونة للمحتاجين من أهل الزقاق؛ فهو – مثلاً - يحاول جاهداً أن يثني المعلّم عن قراره بطرد الشاعر من عمله في مقهى المعلّم كرشه. ويقول للشاعر أيضاً: "كلنا أبناء آدم، فإذا ألحّت عليك الحاجة، فاقصد أخاك، والرزق رزق الله، والفضل فضله"[١٤٣].

ولدوره الاجتماعي، نرى توديعاً حافلاً للسيد رضوان الحسيني، عندما قصد الحجّ، وذلك لمكانته بين أهل الزقاق. "كان يوم وداع وسرور، فدبّت في قلوب الرفاق عاطفة واحدة: ذلك أنّ للسيد رضوان الحسيني منزلة رفيعة في القلوب جميعاً على السواء"[١٤٤].

وعلى النقيض من دور السيد رضوان الحسيني، يكتفي الشيخ درويش بحبّ آل البيت، ولا يستجيب لنداء أحد في الزقاق. فهو شخصية منعزلة عن المجتمع، غير قادرة على مواجهة الواقع، ويتهرّب من مسؤولياته[١٤٥]، وحتى في مداخلاته نجده سلبياً. فمثلاً يغضب منه المعلّم كرشه، لكلامه غير المنطقي في قضية المعلّم مع زوجته. فيقول الشيخ للمعلم: "يا معلم، امرأتك قويّة، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال، وهي ذكر، وليست أنثى، فلماذا لا تحبها؟

وصوّب المعلّم نحوه عينين ناريتين، وصاح في وجهه:

– اقطع لسانك!

وصاح أكثر من واحد من الجالسين:

- حتى الشيخ درويش!"[١٤٦].

ويقول الكاتب عن شخصية الشيخ درويش من الناحية الاجتماعية، بعدما ساءت حالته المعيشية: "هكذا ختمت حياته بالأوقاف. وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التي كان واحداً منها. وهجر أهله، وإخوانه، ومعارفه، إلى دنيا الله، كما يسمّيها، ولم يستبق

---

(١٤٢) ينظر: النهج الديني في أدب محفوظ، السيد وكيل، من الأنترنت، منتديات مكتوب، مدونة مكتوب، saidelwakil.maktoobblog.com، ٢٠٠٩م.

(١٤٣) الشخصية الدينية في رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ: د. حسين علي محمد، ، دار ليلى للنشر والتوزيع، المنتدى الأدبي، من كتاب مقالات في الأدب العربي المعاصر للدكتور المذكور. أصوات معاصرة، دار الإسلام للطباعة، المنصورة، ٢٠٠٤م، www.arabna.info\vb\showthread.php?p=93904

(١٤٤) رواية زقاق المدق، ص ٢٢٤.

(١٤٥) ينظر: الشخصية الدينية في خطاب نجيب محفوظ الروائي، ص٧٨-٧٩.

(١٤٦) رواية زقاق المدق، ص٨٧.

من آثار الماضي جميعاً إلا نظارته الذهبية. ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى . . ."[١٤٧].

إذن يقدّم لنا محفوظ نموذجين لهذه الشخصية، شخصية رضوان الحسيني، الذي يعايش النّاس، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، فهو شخصية تربط الدنيا بالدين، تشارك النّاس همومهم، وتصحّح أفكارهم، بل يدخل في حوارات لتقديم صورة جميلة عن الإسلام. وهذه الصورة جعلته محبوباً بين أهل الزقاق. والثاني: شخصية الشيخ درويش، حيث انعزل عن الحياة، وهو أنموذج مهزوم، غلبت عليه الظروف في حياته العملية؛ فقد كان مدرّساً، ثم أصبح موظّفاً بسيطاً، مع العلم أنه كانت له مكانته بين أهل الزقاق، بالرغم من عزلته[١٤٨].

ثالثاً: الشخصية الدينية والسياسة:

تعرّف السياسة بأنها: أصول، أو فن إدارة شؤون العامّة[١٤٩]. والشخصية الدينية مطالبة، بمقتضى إيمانها، ألا تقف موقف المتفرّج من القضايا السياسية، بل عليها أنْ تقاوم، وتعمل على تغييره باليد وباللسان والبيان و. . ، ويحثّ النّاس على رفض الاستبداد والظلم و. . وهذا شأنهم دائماً في التاريخ العربي الإسلامي، وفي الثورات العربية المعاصرة أيضاً.

وقد تطرّق الروائي محفوظ إلى هذه القضية في رواياته، كل حسب مرجعه الفكري، وهذا ما سنتناوله في هذا المبحث.

ففي الرواية، علاقة الشخصية الدينية بالسياسة ضعيفة، حتى مداخلاتها في موضوع السياسة هزيلة، كأنّما لا علاقة لها بما يحدث في البلاد. فهذا السيد رضوان الحسيني ينصح عبّاس الحلو، عندما قرّر الأخير العمل في الجيش البريطاني، ودعا له، فقال:

"- اقتصد ما يفيض عن حاجتك في غربتك، واحذر الإسراف والخمر ولحم الخنزير، ولا تنس أنّك من المدقّ، وأنّك إلى المدقّ راجع. "[١٥٠]. فكان من المفروض على الشيخ أن لا يقبل بأن يعمل عبّاس الحلو في الجيش البريطاني، لأنه رجل مثقف يفهم ما يجري في

([١٤٧]) المصدر السابق نفسه، ص ١٥.

([١٤٨]) ينظر: نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ: د. محمد علي سلامة، ط١ ص٨٦-٩٠، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٧م.

([١٤٩]) الدين والسياسة، د. يوسف القرضاوي، ص ١٨، المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث، دبلن، ٢٠٠٧م.

([١٥٠]) رواية زقاق المدق، ص٩٣ . وينظر أيضاً: المنتمي، دراسة في أدب نجيب محفوظ، ص٢٣٢.

البلاد، ويعلم أن بريطانيا دولة مستعمرة.. كان لا بدّ أنْ يحثّ النّاس على مقاومته بشتى الطرق، لا أن ينصحهم، ويدعو لهم، عندما يعملون عندهم.

ويأتي دور الشيخ درويش أكثر سلبية، حيث يبارك لعباس الحلو على هذا العمل، بل: "وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسي"[١٥١]. إذن قدّم نجيب محفوظ في هذه الرواية، شخصية دينية، علاقتها بالسياسة ضعيفة.

رابعاً: الشخصية الدينية والسجون:

ولد في عالمنا ما يعرف بأدب السجون والمعتقلات، وهذا الأدب ولد من رحم المعاناة، وجبروت السلطات، وسوط الألم، وغياب القانون، وتكريس الدكتاتورية في أمّتنا، وغياب صوت الحق، وانزواء المخلصين في دهاليز الزوايا، وسراديب التكايا، خوفاً من الظالمين. وبعضهم يعتقلون، و يزجّ بهم في السجون، خوفاً من الفكرة التي يحملونها.

وكان للشخصيات الدينية نصيب من هذه المحنة، فقد دخلوا السجن، وذاقوا أصنافاً من التعذيب، وكانوا مثالاً للتضحية والثبات و. . .[١٥٢].

ففي رواية (زقاق المدق)، لم يدخل السيد رضوان الحسيني السجن، بسبب عدم وجود مواقف سياسية له تجاه القضايا التي تتعلّق بالسياسة، بل بدا كأنّه مصلح اجتماعي في الرواية. وكذلك الشيخ درويش، فصورته سلبية، متناقضة، وغير طبيعية: "فالشيخ درويش صوفي مجذوب، منعزل عن الحياة.."[١٥٣]. فالشخصية المنعزلة عن الحياة - على الأغلب - لا نرى لها دوراً في هذه القضايا.

إذن قدّم محفوظ شخصية دينية لا علاقة لها بالسياسة، أو أنّ علاقتها ضعيفة.

خامساً: الشخصية الدينية بين السلبية والإيجابية:

في رواية (زقاق المدقّ)، تظهر شخصية السيد رضوان الحسيني بشكل إيجابي، حيث تعلّق النّاس به، وكانوا يلجؤون إليه في الأزمات الاجتماعية والاقتصادية و. . ويمثّل هذا

---

(١٥١) رواية زقاق المدق، ص٩٣ . وينظر أيضاً: نجيب محفوظ نماذج الشخصيات المكرّرة، ودلالتها في رواياته، ص٤٠.

(١٥٢) ينظر: أدب السجون والمعتقلات؛ وقفة تستحقّ التأمّل، مقالة من الانترنت، شبكة أنا المسلم للحوار الإسلامي". www. muslm. net. . وكذلك ينظر: أدب السجون، من الانترنت، منتديات ومدونة أبو محجوب، www. mahjoob. com.

(١٥٣) ينظر: نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ، ص٨٥-٨٦.

التوجّـه جـوهر الـدين؛ لأنّ دور الشخصـية الدينيـة يكمـن في حـلّ المشـكلات، وإصـلاح المجتمع[١٥٤]. فهو الذي رفض خطبة (حميدة) من سليم علوان، عـلى خطبـة عبـاس الحلـو، الذي ذهب إلى مستعمرات الإنكليز ليجلب الصداق الذي سـيتزوج بـه (حميـدة). ورفـض الازدواجية في سلوك وتصرفات (حميدة)، التي طالما حلمت بالثراء، وبأية وسـيلة، ورفضـت واقعها الذي تعيشه في فقر.

وهو الذي تجاوز أحزان الدنيا بنعليه، واتّصل قلبه بالسماء، وأفرغ حبّه للنّـاس جميعـاً، وهو الذي هجر الجميع إلى دنيا الله[١٥٥].

ونجد أيضاً في شخصيته جوانب سلبية، منها نصحه، ودعاؤه الطويل لعباس الحلـو عـلى عمله في معسكرات الجيش البريطـاني المحتـل. وكـذلك لـه أقـوال مخالفـة للقـرآن والسـنّة النبوية، منها بعد وفاة ولده، حيث يقول: "الله أعطى وأخذ، كلّ شيء بأمره، وكـلّ شيء لـه، والحزن كفر"[١٥٦].

والمعلوم من الدين أن الحزن ليس بكفر، لأنّ الرسول (صلى الله عليه وسـلم) بـكى عـلى ولده إبراهيم، وقال: (وإنّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون)[١٥٧].

وبالمقابـل نجـد شخصـية الشـيخ درويـش، أقـرب إلى السـلبيّة، وحتـى مداخلاتـه في الحوارات تأتي سلبيّة، كما حدث في تدخلّه لحلّ مشكلة المعلّم كرشـه وزوجتـه، كـما ذكرنـا سابقا. بل أصبح مصدر إزعاج في شيخوخته، فيقول له صديقه القديم السيد سليم علوان:

"- إنه ليوم شؤم، إذ أصبحتُ على وجهك يا مجنون. أغرب عن وجهي، عليك لعنة الله.."[١٥٨].

وكانت ردّة فعله أن بكى، وعلا صوته، فصار أشبه بالصراخ.

---

(١٥٤) ينظر: الشخصية الدينية في خطاب نجيب محفوظ الروائي، ص٧٨-٧٩. وللمزيد، ينظر: المبحث الثاني: الدور الاجتماعي للشخصية الدينية عند نجيب محفوظ.

(١٥٥) ينظر: الدين عند نجيب محفوظ، عصام أبو الدهب، مقالة من الأنترنت، موقع رابطة أدباء الشام، www.odabasham.net\show.php?sid=12794.

(١٥٦) ينظر: الصراع الأيديولوجي في روايات نجيب محفوظ ما بين التاريخ والإسقاطات الخاصة (زقاق المدق) نموذجاً، د. أمين أبو ليل، ص٧ ، بحث مقدّم إلى الأسبوع العلمي الخامس لكلية الآداب والفنون، من الانترنت، abu-lail.com.cc\index.php?option=com-docman&task=doc-view.

(١٥٧) صحيح مسلم: الجامع الصحيح المسمى بصحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن النيسابوري،ج٧ ص٧٦، رقم الحديث ٦١٦٧، كتاب الفضائل، باب رحمته بالصبيان والعيال وتواضعه، دار الجيل، بيروت.

(١٥٨) رواية "زقاق المدق"، ص٢٠٣.

إذن يمثّل الشيخ درويش: "نموذج الاستغراق الخاص. أمّا السيد رضوان، فهو التفاعل الحيِ، أو الدعوة إلى التفاعل والإيجابية"[١٥٩].

وملخّص أنموذج الشخصية الدينية في الرواية، أنّ شخصية الشيخ البلخي كانت تقليدية سلبيّة في البداية، وإيجابية عبر مراحل الرواية، "شخصية سمحة ومؤثّرة ومرغوبة بين النّاس".

سادساً: الشخصية الدينية والمرأة:

في رواية (زقاق المدق)، نجد علاقة السيد رضوان الحسيني بزوجته، علاقة جيدة حيث إن "زوجه لم يكن لديها ما تشكوه منه، و لولا الجروح التي تركها الأبناء تذكاراً خالداً في قلبها، لعدّت امرأة سعيدة، فخوراً بزوجها وحياتها" [١٦٠].

وتمثّل شخصية رضوان الحسيني، بالنسبة لحميدة، بطلة الرواية، الضمير الحيِ الذي يحاول أن يردعها، ويعيدها إلى الصواب، ولكنها تصرّ على طريقها إلى الضلال، حتى إنّها في طريقها إلى السقوط والانحلال تتذكر السيد رضوان الحسيني[١٦١].

وعندما دخلت في مرحلة الانحراف، تذكّرت السيد رضوان الحسيني، فقالت:

"وما عسى أن يقول السيد رضوان الحسيني مثلاً، لو رآها تمرق إلى هذه العمارة؟"[١٦٢].

بل وتستحي منه: "ترى ماذا يقول عنها غداً، إذا تناهى إليه الخبر"[١٦٣].

ولكن ترى حميدة أن السيد رضوان إنسان غير مستقيم، بالرغم من مكانته بين أهل الزقاق، فهي تنظر إليه نظرة نفعية، أيْ ما يوافق رغباتها، حيث إنّها تريد الزواج من سليم علوان، وتترك خطيبها عبّاس الحلو، وهذا ما لم يقبله السيد رضوان. لذا قالت:

"السيد رضوان وليّ من أولياء الله، أو هذا ما يجب أن يتظاهر به أمام النّاس، في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله". " أمّا لو كان طيباً، كما تزعمون، لما رزأه الله في أبنائه جميعاً"[١٦٤].

([١٥٩]) ينظر: الإسلام والروحية في أدب نجيب محفوظ: ص٨٥.

([١٦٠]) رواية زقاق المدق، ص ٤٧.

([١٦١]) ينظر: الشخصية الدينية في رواية زقاق المدق، د. حسين علي محمد، مقالة من الأنترنت.

([١٦٢]) رواية زقاق المدق، ص ١٥٨.

([١٦٣]) المصدر السابق، ص ١٦٧.

([١٦٤]) الشخصية الدينية في خطاب نجيب محفوظ الروائي، ص١٣٣.

ونلاحظ موقفه الإيجابيّ أيضاً، في القيام بدوره الاجتماعي، فيقوم بتهدئة الزوجين (المعلّم كرشه، وزوجته أمّ حسين)، في حين إن الشيخ درويش كان يتناول الموقف بسخرية، كما ذكرنا سابقاً[١٦٥].

والخلاصة علاقة الشخصية الدينية بالمرأة، علاقة متفاوتة، حسب الرواية، فتظهر بشكل فعّال في هذه الرواية.

سابعاً: دلالة الاسم في الرواية:

من الواضح أنّ قضية الأسماء، ودلالاتها، قد حازت جانباً رئيساً من تفكير الكاتب، واستولت على اهتماماته، وأفكاره، بحيث استطاع أن يقدّم تصوّراً حقيقياً صادقاً لنماذجه التي ركّز عليها.

ويستخدم الكاتب نوعين من استخداماته للأسماء: **نمطاً مباشراً**، أيْ دلالة الاسم على المسمّيات. **ونمطاً تهكّمياً** ، أيْ دلالة الاسم على عكس صفات المسمّيات، على سبيل السخرية والتهكّم.

ففي هذه الرواية، اختار محفوظ لشخصياته أسماء متّفقة مع صفاتها، **فرضوان الحسيني** هي الشخصية التي تتمتّع برضا المؤلف، وهو اسم على مسمّى، واسم من أسماء أحد الملائكة على أحد أبواب الجنّة[١٦٦]. واللقب (الحسيني) عائد إلى أحفاد النبي (صلى الله عليه وسلم)، وفيه ما فيه من المنزلة الرفيعة في قلوب النّاس، بل إنّ اسمه يوحي بأنه قانع بحياته، وربّما كان يسكن – رمزياً- في الطابق الأوسط في منزله[١٦٧].

واسم الشيخ درويش له دلالة صوفية، يعرفها العامّي قبل المتعلّم، وهو كان درويشاً؛ اسماً وسلوكاً، انقطع عن الحياة الواقعية، بعد أنْ كان موظّفاً لمدّة دامت أكثر من عشرين عاماً، وأصبح يميزه عن النّاس ذهوله عمّا حوله من أناس لا يلتفت إلى أقوالهم، أو أعمالهم، وكلماته تأتي تعليقاً على مواقفهم، وباللغتين العربية والإنكليزية. بمعنى آخر: إن دلالة اسمه، هو الهروب من مسؤولياته، عن طريق التعلّق بالخرافات، والالتجاء إلى آل البيت.

---

(١٦٥) ينظر: المصدر نفسه، ص٨٠.

(١٦٦) ينظر: الرؤية والأداة، د. عبد المحسن طه بدر، ص٣٥٨.

(١٦٧) ينظر: زقاق المدق، تحليل ثقافي اجتماعي، ماريوس ديب، ترجمة: محمد بهنسي، النقد الأدبي، ص٢٠١، مجلة فصول، عدد خاص ٦٩، خريف ٢٠٠٦م.

ويعتبر اسم عبد المنعم شوكت، والشيخ درويش، والشيخ علي المنوفي، من النمط المباشر، بينما يعتبر اسم أحمد شوكت الاشتراكي من النمط التهكّمي، والتي تحمل معان غاية في الطهر، بعكس شخصيته، ذات التوجّه اليساري.

ثامناً: وصف الشخصية الدينية في الرواية:

الوصف بصورة عامة، يخدم بناء الشخصية، وله أثر في تطوّر الحدث، بشكل مباشر أو غير مباشر، لتكتمل الوحدة العضوية مع العناصر الأخرى للرواية.

وهناك طريقتان شائعتان في تقديم الشخصية الروائية، قد تعارف عليها الروائيون، هما[١٦٨]:

١- الطريقة المباشرة: ويقدّم الراوي شرحاً للصفات الخارجية والداخلية، وكل ما يتعلّق بها، بحيث لا يترك مجالاً للقارئ لاستنتاج صفات معيّنة لها.

٢- الطريقة غير المباشرة: حيث يترك الشخصية تقدّم نفسها بنفسها، بعيداً عن تدخّلات الراوي، وعبر عدّة تقنيات، منها المونولوج الداخلي، أو الحوار المباشر، أو حديث شخصيات أخرى عنها.

والروائي قد قدّم الشخصية الدينية بالطريقة المباشرة، وأخرى بالطريقة غير المباشرة.

أمّا الوصف في الرواية، فيصاغ من أجل مساعدة الحدث على التطوّر، وهو جزء من الحدث، ويأتي الوصف مؤثّراً في القصّة، والوصف الذي لا يؤدّي وظيفته في الرواية، يكون زائداً فيها.

ويقدّم السارد أشخاصه مفسّراً تصرّفاتهم، ومحلّلاً أفعالهم، يسير بهم مع الأحداث السير الطبيعي حتى نهايتها. ونجد الكاتب يعمد إلى عبارات وصفية في بعض الروايات، لها علاقة بالأحداث.

وكان نجيب محفوظ، في روايات المرحلة الاجتماعية، ومنها رواية (زقاق المدق)، يرسم أبطاله رسماً خارجياً دقيقاً مفصّلاً، ثمّ يرسمهم من الداخل، محاولاً تحديد تركيبهم النفسي، كما في شخصية السيد (رضوان الحسيني) في (زقاق المدق)[١٦٩].

([١٦٨]) ينظر: ثلاثية يوسف القعيد(شكاوي الفلاح المصري)، دراسة في البنية السردية، خالدة حاتم علوان الدليمي، ص٢٥٥، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، قسم اللغة العربية وآدابها، إشراف: د. علي عبد الرزاق حمود السامرائي، ٢٠٠٥ م. وينظر أيضاً: بناء الشخصية الروائية، د. سمر روحي الفيصل، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ٣٤٥، كانون الثاني، ٢٠٠٠م.

وقد قدّم السارد شخصية السيد رضوان الحسيني على هذا النحو المذكور، فبدأ أولاً بوضعها داخل تكوين درامي معيّن، ثمّ ذكر بعض **الملامح الجسمية** له. فيقول: "وهنا قدم شخص جديد، تعلّقت به الأنظار في إجلال ومودة، وردّوا تحيته بأحسن منها. كان السيد رضوان الحسيني ذا طلعة مهيبة، تمتدّ طولاً وعرضاً، وتنطوي عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشعّ النّور من غرة جبينه، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيماناً. سار متمهّلاً، خافض الرأس، وعلى شفتيه ابتسامة تشي بحبه للنّاس وللدنيا جميعاً، واختار مجلسه على المقعد التالي لأريكة الشاعر، وسرعان ما رحّب به الشاعر، وبثّه شكواه..."[١٧٠].

ثم يتجوّل السارد بعد ذلك في شخصية رضوان الحسيني، فيقول: "كان يحرص دائماً على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل، أو ينقلب إلى بيته ملوماً محسوراً. وإنه ليبدو، لحبه الخير، ولسماحته، كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع، وإنْ كان في الواقع لا يملك إلا البيت الأيمن من الزقاق، وبضع أفدنة بالمرج. وقد وجد فيه سكان بيته - المعلّم كرشه في الطابق الثالث، وعمّ كامل، والحلو، في الطابق الأول – مالكاً طيّب القلب والمعاملة، حتى إنه تنازل عن حقّه في الزيادة التي قرّرها الأمر العسكري الخاصّ بالسكن، فيما يتعلّق بالطابق الأول، رحمة بساكنيه البسيطين، فكان رحمة حيث حلّ، وحيث يقيم"[١٧١].

وعاد السارد وذكر بعض الصفات الجسميّة للسيد رضوان الحسيني، ولكن بكلمات أو عبارة محدودة، فيقول المؤلف عنه، على لسان سليم علوان: "فالتفت نحو مصدر الصوت، فرأى السيد رضوان الحسيني مقبلاً، بجسمه الطويل العريض، ووجهه المشرق المتألّق، فانبسطت أساريره لأولّ مرّة، وهمّ بالوقوف، ولكن السيد رضوان. . ."[١٧٢].

أمّا **ملامحه النفسية،** فيوزّعها في أكثر من فصل.. ففي الفصل الأول يقول عنه: "كانت حياته -وخاصة في مدارجها الأولى – مرتعاً للخيبة والألم، فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقته شوطاً طويلاً من عمره، دون أن يظفر بالعالمية، وابتلي إلى ذلك بفقد الأبناء، فلم يبق له ولد، على كثرة ما خلّف من الأطفال. ذاق مرارة الخيبة، حتى أترع قلبه باليأس، أو كاد، وتجرّع غصص الألم، حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم،

---

(١٦٩) ينظر: الاتجاه التعبيري في روايات نجيب محفوظ، د. العربي حسن درويش، ص٥٥.

(١٧٠) رواية زقاق المدق، ص١٠ . وينظر أيضاً: قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، د. نبيل راغب، ص١٠٥.

(١٧١) رواية زقاق المدق، ص ١٠٥.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

وانطوى على نفسه طويلاً، في ظلمة غاشية. ومن دجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحبّ، فلم يعرف قلبه كرباً ولا همّاً. انقلب حباً شاملاً، وخيراً عميقاً، وصبراً جميلاً. وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على النّاس جميعاً. وكان كلّما نكد الزمان عنتاً، ازداد صبراً وحباً". وفي الفصل السادس يستكمل الصورة، فيقول عنه: "كان وجهه الأبيض يفيض بشراً وذ وراً، تحيط به لحيته الصهباء إحاطة الهالة بالقمر. وكان كلّ شيء حوله يلوح، بالقياس إلى طمأنينته الراسخة، قلقاً واضطراباً. وكان نور عينيه صافياً نقياً، ينطق بالإيمان والخير والحبّ والترفّع عن الأغراض"[١٧٣]. بل كان "مؤمناً صادقاً، ورعاً تقياً، يستأثر نفوس العلماء بقلبه الكبير، وصدره المسامح، وخلقه القويم، وعطفه وحنانه ورحمته، فكان بحقّ من أولياء الله الصالحين"[١٧٤].

ويرمز بشخصية الحسيني إلى الإنسان العصري، "بما فطر عليه من صبر ورضى بالقدر، ومن طيبة ونقاء، وأمل بالمستقبل"[١٧٥].

وفي نفس الرواية يقدّم السارد شخصية **الشيخ درويش** على أنها شخصية محبوبة بين أهل الزقاق، فيقول عنه: "بيد أنّه رجل محبوب، مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيراً، ويقولون عنه إنّه وليّ من أولياء الله الصالحين، يأتيه الوحي باللغتين العربية والإنكليزية"[١٧٦]. ويصوّر السارد حالته النفسية، بعد تردّي أوضاعه المعيشية، فيقول عنه: "كان من الطبيعي أن يحزن الرجل على مصيره حزناً عميقاً، وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يعلنها حيناً، ويكتمها - مقهوراً، مغلوباً على أمره- أحياناً. ولقد سعى كل مسعى، وقدّم الالتماسات، واستشفع الرؤساء، وشكا الحال، وكثرة العيال، دون جدوى. ثم استسلم للقنوط، بعد أنْ تحطّمت أعصابه، أو كادت. واشتهر أمره في الوزارة كموظف كثير التبرّم والشكوى، عظيم اللجاج والعناد، سريع التأثّر..."[١٧٧].

وهناك أشياء متعلّقة به ترمز إلى دلالات متنوعة، حيث "ترمز نظارة الشيخ درويش، ذات الإطار الذهبي، ورباط عنقه، إلى العالم الحديث، بينما يرمز جلبابه، وقبقابه، إلى العالم

([١٧٣]) رواية زقاق المدق، ص١٠. وينظر أ يضاً: الشخصية الإسلامية في رواية زقاق المدق، مقالة من الانترنت، .
www.arabna.info\vb\showthread.php?p=93904

([١٧٤]) رواية زقاق المدق، ص ٧٧.

([١٧٥]) ينظر: نجيب محفوظ نماذج الشخصيات المكررة، ص٣٩.

([١٧٦]) رواية زقاق المدق ، ص١٥.

([١٧٧]) المصدر نفسه، ص ١٤.

التقليدي"[١٧٨] . والغريب في صورة الشيخ الزقاقيّ، أنّه أفنديّ يرتدي جلباباً ورباط عنق، وكان من المفروض أن يكون شيخاً على الطريقة المعهودة للمشايخ، ولكن مفهوم الشيخ هنا مفهوم صوفيّ.

ونلخّص القول بالبراعة الفنية في (زقاق المدقّ)، من خلال "إحاطته بالشخصية من الخارج، يصوّرها تصويراً فنياً نفّاذاً، وفي اتّخاذ سماتها الخارجية منفذاً إلى صفاتها الداخلية، وفي تركها أمامنا تتحاور، وتتصرّف، بما يكشف عن تفاعلها الحيّ المثمر مع ما حولها، ومن حولها، بحيث تغدو محقّقة الجدليّة الأزليّة القائمة بين الفرد والجماعة، وبين الفرد والبيئة، بمعناها الشامل"[١٧٩].

نستنتج من هذا البحث ، أنه لا يظهر في هذه الرواية سمة الاتّجاه الإسلامي، بل تظهر حسب قناعة الكاتب، ودورها في المجتمع، ومدى حاجة الرواية إليها. والشخصية الدينية، عند نجيب محفوظ، لا تصل إلى درجة الكمال الإنسانيّ الفني، ما لم تجمع بين العلم والإيمان، ويرى ضعف دور هذه الشخصية في إصلاح المجتمع. وهذا واضح في مسار دوره في معظم الرواية، فهو لا يرى البديل في حلّ مشكلات المجتمع إلا بالعلم، حيث إن الدين – برأيه - فشل في حلّ هذه المشكلات، أو تحقيق طموحات المجتمعات المعاصرة. لذلك فهو يقدّم في روايته شخصية دينية عاجزة، قاصرة، لا تمسّ الواقع بشيء، بل شخصية ضعيفة، تظهر – أحياناً - رمزاً للبلاهة والسذاجة المفرطة، ومثالاً للقذارة، والشعوذة، وأنموذجاً للسلبيّة المشينة، علاقتها بالسياسة ضعيفة.

أما عن المرأة (التي لها علاقة بالشخصيّة الدينية)، في الرواية، فهي المرأة المطيعة والمظلومة، ولا تقوم بأيّ دور إيجابيّ، أو فعّال في المجتمع، "أيْ أن تقوم بواجبها، جنباً إلى جنب مع الرجل، في مقاومة الاحتلال، ومناهضة الظلم، و..".

وفي عرض نجيب محفوظ لشخصياته الدينية، نلاحظ كثرة النماذج السلبيّة في رواياته، ونقد الحلول الغيبيّة لمعالجة المشاكل، وهذا راجع إلى الفكرة التي يحملها الكاتب❐

([١٧٨]) ينظر: زقاق المدق، تحليل ثقافي اجتماعي، ماريوس ديب، ترجمة: محمد بهنسي، النقد الأدبي، ص٢٠٦، مجلة فصول.

([١٧٩]) ينظر: نجيب محفوظ (الرؤية والموقف)، ص١٥٣.